الولادة كما نشأت الغـرائز الأنثـوية فى جميع إناث الأحيـاء • فإذا تصدى الرجل للقتال فى الجيش أو الـكتيبة ، تحـرك بإرادة القطيع كله وتغلب بهـا على الخوف وحب السلامة • ولكنه قـد ينفـرد بالتضحية التى يدفعه إليها وحى الضمير ، فيعلو على فضائل الأنواع والجماعات ، ويعـرج بروحه صعدا فى طراز رفيع من الفضائل : هو فضائل الأفـراد الأفـذاذ

* * *

والغرائز المختلفة التى تعلل لنـا محاسن المـرأة تعلل لنـا نقائصها التى تعاب عليها من بعض جهاتها • وقد لخصها المتنبى ولخص كل ما قيل فى معناها حيث قال :

« فمن عهـدها ألا يدوم لـها عهد »

« فهى تتقلب وتراوغ وترائى وتـكذب وتحزن وتميـل مـع الهـوى وتنسى فى لحظة واحـدة عشرة السنين الطوال

« وهى مسوقة إلى ذلك بالفطرة الجنسية التى خلقت فيهـا قبـل نشأة الآداب الاجتماعية والآداب الدينية بألوف السنين • فقـد أغرنهـا الفطـرة الجنسية بالميل إلى الأقـدر والأكمل من الرجال لتنجب للعالم أحسن الأبنـاء من أحسن الآباء

« فلم يكن مما يوافق هـذه الفطرة فى العصور السحيقة أن تحفظ العهد لرجل واحـد ومن حولها رجال كثيرون يتقاتلون عليها ، وقـد يغلب أحـدهم رجلها الذى تحفظ له العهد أو يطالبها بحفظه

« وكانت الحـرب فى بـداءة الحيـاة الإنسانية هى مقيـاس القـدرة والرجحان بين الرجال ، فى قبيلتهم أو فى جميع القبـائل المحيطة بها ، فـكان من شأن المـرأة أن تسلم لظافر بعـد ظافر ، وشجاع بعـد شجاع ، كلمـا دارت رحى الحرب بين غالب ومغلوب ، وبين الشجاع القـوى ومن هو أشجع منـه وأقـوى

« ثم أصبح المـال مقياس القـدرة والرجحان بين الرجال • وكان مقياسا صحيحا فى العصور الغابرة ، وظل كذلك ألوفا من السنين ، لأنهم كانوا يكسبون المـال غنيمة فى حومة الحرب ، أو ربحا من أرباح التجارة التى تقحم أصحابها